البيان

السنة الاولى — الجزء الثامن

١٦ ستمبر سنة ١٨٩٧

اللغة والعصر

(تابع لما في الجزء السادس)

وقد تقدَّم لنا أن اللغة لم توضع دفعةً واحدة ولكنها كانت تابعةً لأحوال المجتمع ومبلغ الامّة من الحضارة وما هي عليهِ من التبسّط في العمران والتفنن في مذاهب الترف والتوسع في المدارك العلمية والصناعية وما يختلف عليها من الأحوال السياسية والدينية الى ما يتصل بهذه الأطراف ويتشعب عنها فهناك سلسلةٌ من المعاني لا تنقطع ولا تنتهي الى حدٍّ تقف عندهُ ولذلك كان من المحال أن لغة قومٍ مهما بلغت من الكمال وتناهت في الاتساع تصل الى حدٍّ تصلح فيهِ لأن تُستعمَل في كل عصرٍ لأن ذلك الكمال انما يكون بالقياس الى زمنٍ مخصوص ومبلغٍ من الحضارة لا يتعدّاهُ ولكن حقيقة الكمال في اللغة ان تكون بحيث يمكن ان يُستنبَط من نفس اوضاعها الفاظٌ لما يحدث من المعاني لا أن تكون بحيث تستغني عن المزيد اذ المعاني ابدًا تتجدد وليس من المحتمل أن قومًا يضعون الفاظًا لمعانٍ لا توجَد . وأنت اذا تتبّعت اوضاع اللغة لم تكد تعدّ منها ستة آلاف تركيب حالة كون المواد المؤلّفة منها والجارية على ألسنة

اهلها تبلغ فيما ذكروا ثمانين الف مادّة وهي عدّة ما اشتمل عليهِ لسان العرب . وهذا ولا شكّ لم يكن كلهُ من الوضع القديم ولكنهُ ما انتهى الى الصورة التي نُقلت الينا والتي نراها مدوَّنةً في كتب اللغة الآ بعد أن قُلّب كلّ مقلّب ودخل عليهِ من التبديل والزيادة ما اقتضاهُ كلّ عصرٍ من اعصارها حتى بلغت الصورة المتعارَفة آخرًا وانما هي لغة عصرٍ بعينهِ هو عصر اواخر الجاهلية وما يتصل بها من صدر الاسلام مما لا يكاد يتجاوز مئة سنة . واما ما قبل ذلك من اللغة فقد غمض عنا علمهُ لفقد النقل عن اهل تلك الازمنة ولعلّ الكثير منهُ كان على غير الصورة التي انتهت الينا بل ذلك مما لا ريب فيهِ لما قدّمناهُ من ان تبدّل الأحوال من لوازم المجتمع بل من لوازم كل حادثٍ سُنّة الله في خلقهِ وما من تبديلٍ يحدث في حال الأُمّة الا وصورتهُ سيفي لغتها ضرورةً ولو لبثت العرب على عهدها الاول ولم يعترض اللغة من امر مخالطة الاعاجم ما وقف في طريق الوضع وألزمها الحدّ الذي وصلت اليهِ لذلك العهد لطرأ عليها من الإحداث والتبديل ما اتسع بهِ كثيرٌ من الفاظها المدوَّنة ونشأ كثيرٌ من اللفظ الذي لم يكن للعرب بهِ عهد

على أن المولّدين لم يقفوا عن الإحداث في الفاظ اللغة ولم يمكنهم الاستغناء باوضاع البادية على الحدّ الذي كانت عليهِ ولا سيما مع شدة تفاوت الحال بين عهدهم وعهد الجاهلية وانتقالهم فجأةً من حال البداوة الى الحضارة والمُلك وانتشار العلم بينهم في زمنٍ قصير الآ أن مصنفي اللغة لم يكادوا يدوّنون من اوضاعهم الآ النزر اليسير مما يسمّونهُ بالمولّد واغفلوا اكثر المُحدَث حتى لا تكاد تجد لهُ اثرًا الآ في كتب اربابهِ من اهل الفنون التي طرأ فيها ذلك الاحداث وكثيرًا ما تمرّ باللفظة منهُ ولا تفهم المراد بها لقصور القرينة عن الدلالة عليهِ

او لاحتمالها معنىً غير المقصود . وهو تفريطٌ من مدوّني كتب اللغة يؤاخذهم عليهِ المتأخر وقصورٌ منهم أدّى اليهِ سوء تقديرهم للمنفعة المقصودة من معجمات اللغة حتى كان كل ما وُضع بعد زمن الجاهلية مخطًّا في اعتبارهم عن منزلة ما وضعتهُ العرب خلا ما نقلوهُ من الفاظ الشرع وما يتصل بهِ مما وُضع على عهد الاسلام وهو ما يطلقون عليهِ الالفاظ الاسلامية . وفي ذلك ما يدلك على ان اشتغالهم بتدوين اللغة لم يكن على الجهة التي تتوخاها اليوم والتي يتوخاها اهل كلّ لغةٍ من تقييد الفاظها وتيسير استعمالها للخلف وانما كان جلّ غرضهم منها الاستعانة على فهم الفاظ التنزيل والسُّنة مما لا دخل لالفاظ المولدين فيهِ وهو عين ما قصدوهُ من تدوين سائر علوم اللسان من النحو والبيان وغيرهما على ما تنطق بهِ خُطَبهم في فواتح كتبهم وهو المعنى الذي لأجلهِ تُطلَب هذه العلوم لعهدنا الحاضر حتى اصبحت على الغالب لا تتعدّى فرض الكفاية . . وهذا احد اسباب ما نجدهُ اليوم من النقص الفاحش في اللغة وتقصير اوضاعها عن ادآء كثيرٍ من المعاني المَدَنيّة والعلمية مما كان ولا ريب متداولاً على ألسنة السَلَف واقلامهم حتى لو رجعنا الى مثل عصرهم وتوخينا الكلام فيما تكلموا فيهِ لم نجد فيما بين ايدينا من اللغة ما نُغني بهِ غناءهم ولاضطُررنا الى مثل ما نحن فيهِ اليوم من مزاولة الوضع واستئناف ما قد فرغوا منهُ من عهدٍ بعيد

على اننا لا ننكر أن ليس كلّ ما جرى على لسان المولَّد ولا سيما من جآء بعد الصدر الاول للاسلام يصلح لاستعمال الفصحآء وارباب الاقلام ويجوز ان يُلحَق بالفاظ المتقدمين ويُحصَى في جملة اوضاعهم لِما أن ألسنة الأعقاب قد فسدت بما طرأ عليها من مخالطة العجم وفارقت سُنّة العرب في وضع الألفاظ واشتقاقها وتقليبها على صِيَغها المألوفة عندهم الّا أن الأُمّة لم تخلُ مع ذلك من

قومٍ قد توفروا على البحث في اوضاع اللغة وتتبُّع احكامها والنظر في اوجه صوغها وتصريفها حتى استبطنوا سرها وقبضوا على قيادها فتهيأ لهم ان يضعوا عن كسبٍ ودرس ما كانت تضمهُ العرب عن سليقةٍ وتلقين طبع . ومتى كان الواضع على بيّنةٍ مما يضع جاريًا فيهِ على طريقة العرب واسلوبها وكان الموضوع مُقتبسًا من نفس الفاظها حتى يكون كأن العرب وضعتهُ بانفسها فلا وجه لردّهِ بحجة أن الواضع ليس منها واعتدادهِ نازلًا عن رتبة كلامها بل أحرِ بهِ ان يُلحق باوضاعها وينزَّل من عدم الاستغناء عنهُ منزلة الفاظها اذ لم يوضع الّا عن حاجةٍ داعية وضَرورةٍ ماسّة والّا فالقضاء باهمالهِ وتجافي الألسنة عن استعمالهِ قضاء باهمال علوم السلف بل التجافي عن الحضارة جملةً ورجوع الامة الى عهد البداوة

ستأتي البقية

الصابئة

(تتمة ما في الاجزاء السابقة)

ومن اولئك الرجال سليمان بن داود ولهُ عندهم احاديث اكثرها مشهور من نحو الخاتم والبساط وغير ذلك فلا نطيل بذكرها

واشهر من يُذكَر في كتبهم من هذه الطبقة « ايشو » او عيسى وهو ابن خالة يحيى وكان معاصرًا لهُ وهم يقولون انهُ كما تحتاج اليد اليمنى الى اليسرى في خدمة الانسان كان يحيى محتاجًا الى عيسى في قضاء ما نُدِب اليهِ ولذلك وجب ان يكونا في زمنٍ واحد . وقصة مولده عندهم اشبه بقصة مولد يحيى وذلك أن مورودَّربوتو دعا واحدًا من الثلاث مئة والستين شخصًا السماويين يقال لهُ « شيشلوم زيوو » وهو من طبقة مندوداي ابي يحيى واصحبهُ باثنين من